

صاحب هذا المكان الحاكم بأمر الله الفاطمي

جمال الفيضاني

الموسم

الآن يوجد في القاهرة القديمة مسجد كبير، فسيح بطلت منه شعائر الصلاة منذ قرون وصلنا من العصر الفاطمي وكما لاقي صاحبه ظلماً فادحا من المؤرخين فإنه يعاني الآن وحدة وهوانا لا مثيل لها فأعمدته متهدمة ومئذنتيه تسكنهما اللوطاويط وفوق قسم منه أقيم بناء قبيح بمدرسة ابتدائية، مدرسة السلحدار الابتدائية وفوق قسم آخر مخزن غير أن المسجد الفسيح يحتفظ بهيبته غامضة تتسق مع سيرة صاحبه التي يلفها نفس الغموض والهيبة، إن أطلاله القديمة تضم بين ثناياها أسرار هذا العهد البعيد المثير.

قبل الموت

سنة ٣٨٠ هـ بدأ الخليفة العزيز بالله الفاطمي في إنشاء مسجد خارج أسوار القاهرة لكنه لم يتم في عهد هذا الخليفة، توفي في عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) وكان عمر الحاكم وقتئذ أحد عشر عاماً يقول المؤرخ ابن خلكان أن الحاكم بأمر الله قال لجليسه وصنيعه المؤرخ (المسبحي) الذي روى عنه:

استدعاني والدي قبل موته وعليه الخرق والضماد فاستدعاني إليه وقبلني وضممني إليه وقال: وأغمي عليك يا حبيب قلبي ودمعت عيناه ثم قال: امض يا سيدي والعب فأنا في عافية قال الحاكم: فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه فبادر إلى برجوان وأنا في أعلى جميزة في الدار فقال برجوان انزل ويحك الله فينا وفيك، فنزلت فوضع العمامة بالجواهر على رأس وقبل الأرض وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ولأن الحاكم بأمر الله كان صغير السن فقد طمعت القوى السياسية الموجودة وقتئذ في السيطرة عليه وكان الصراع محتتماً بين طائفتي المشاركة والمغاربة وفي وسط هذا الواقع المضطرب كان هناك خصي أبيض اسمه (برجوان) أحد الخدم البيض الذين جلبوا من أوروبا ليعملوا في القصور الإسلامية تدرج (برجوان) حتى وصل إلى منصب أستاذ ثم عمل على إزاحة منافسيه وكان سياسياً موهوباً فبدأ يستميل إليه العواطف المتنازعة وفعلاً تمت له السيطرة على مقاليد الأمور أصبح يدير دفة الأمور في الدولة وتجاهل الخليفة صغير السن لم يقم له أي اعتبار ثم بدأ يغرق في الملذات غرق في الملاهي والملذات ولأنه كان مهيمناً على كل شيء فقد

أصبحت الفوضى تعم كل شيء، ويبدو أن إغراء الحكم والإغراق في الملاهي قد حجباً عن عيني برجوان ملامح شخصية الحاكم بأمر الله، هذا الفتى الطويل، المتسع العينين، صاحب النظرات النفاذة، الذي يميل دائماً إلى التأمل، في هذه الفترة كان الحاكم قد تجاوز مرحلة الصبا، بدأ يدخل مرحلة شبابه ولأنه خارق الذكاء جاد في تناوله للأمور لم يغيب عنه أمر ما يحدث لكنه كتم ما يراه فلم يفصح لأحد ولم يشك قرر أن يعمل في صمت أن يتخلص من هذا الداعية الذي يسيطر على الأمور ويقودها نحو خراب شامل، إذ لابد أن يتخلص من برجوان غير أن الدافع لديه لم يكن سياسياً محضاً أو بهدف سيطرته على مقاليد الدولة لقد كانت أهدافه أعم وأشمل وهذا يبدو بوضوح في الخطوات العملية التي بدأ في تنفيذها بعد تمكنه من السلطة في تلك الفترة كان عقله يضح بالمثل، كان يحلم بإقامة عالم خال من المظالم، خال من المجاعات من الأوبئة عالم تتحقق فيه العدالة، عالم يذوب فيه المحكوم في الحاكم، إن الواقع حوله يضح بكل ما يستنفر روحه الطموحة إلى عالم مثالي يقوم فوق أرض الواقع، وهو ليس حاكماً عادياً إنه خليفة، وإمام المؤمنين، ومرتبة الإمامة عند الفاطميين تجعل الخليفة من الناحية التأويلية في مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر لأن الأئمة هم حجج الله على خلقه وهم الداعون إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه.

خطة التخلص

لاشك إذن أن الإمام أو الخليفة الفاطمي يتمتع بموقع استثنائي بالنسبة لبقية البشر، إذن يحاول من خلال موقعه هذا وما ينفرده به من سلطات وهيبة وحصانة أن يقيم عالمه المثالي، لكن تبقى عدة عقبات منها ضرورة سيطرته على جهاز الحكم حوله ثم الوسيلة إلى خلق هذا العالم المثالي؟

لكن كيف وهو بلا حول أو قوة؟

بتآن شديد وضع خطة محكمة للتخلص من (برجوان) استدعى أحد رجاله الفاطميين زيدان صاحب المظلة أي من يحمل المظلة فوق جواد الخليفة في المواكب، التقى به في البستان الكافوري المطل على النيل، وكان البستان متصلاً بالقصر عن طريق سرداب يمتد تحت الأرض في ذلك البستان رتب كل شيء وفي يوم آخر ذهب إلى البستان ومعه برجوان في هذه المرة لقد اعتاد إلى مصاحبته أثناء تفقده لبعض المنشآت الجديدة طافاً بين الأشجار تأملاً الخضرة، تحدثاً، فجأة، ظهر زيدان تقدم مقبلاً يد برجوان في نفس الوقت يتحسس ملابسه خوفاً من أن يكون مرتدياً درعاً حديدياً تأكد أن برجوان لا يلبس شيئاً بسرعة طرحه أرضاً قتل برجوان وبسرعة بدأ الحاكم يتحرك بذكاء.

«ويكر الناس إلى القصر فوققوا بالباب ونزل القائد أبو عبد الله الحسين بن جوهر القائد وحده إلى القصر، وأذن للناس، فدخلوا إلى الحضرة، وخرج الحاكم على فرس أشقر، فوقق في صحن القصر قائماً وزيدان عن يمينه وأبو القاسم عن يساره، والناس قيام بين يديه فقال لهم

بنفسه من غير واسطة: إن برجواي عبدي استخدمته فنصح فأحسننت إليه، ثم أساء في أشياء عملها فقتلته، وأنتم عندي الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم..

ثم أصدر سجلاً على سائر أهالي مصر: تلي بعد صلاة الجمعة يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (٦ إبريل سنة ١٠٠٠م)، تلي السجل الذي كان في بداية عمره الطويل يقوم خارج أسوار القاهرة في سقفه تلاً لأمنات القناديل ومن منذنتيه اللتين شيدتا على نمط منارة الإسكندرية الذي كان سليماً لم يتهدم بعد يدوي صوته اثنين وخمسين مؤذناً في أوقات الصلاة.

ومن فوق المنبر نصح الناس بالعودة إلى أعمالهم وقال إنه منذ الآن سيباشر كل شيء بنفسه وإن بابه مفتوح أمام الناس كلهم لقد بدأ الحاكم خطواته العملية نحو تحقيق العالم الذي يطمح إليه في الشهور الخمسة التالية لمقتل برجوان تخلص من الأتباع الأقوياء الذين كانوا يمثلون ضغطاً عليه، أصبح قابضاً على مقاليد الأمور بيد من حديد، لنرغداً ما سيفعله؟ ما الذي قام به من أجل خلق عالم حلو، رائع بلا أوجاع، وهنا يجب أن نلاحظ عدة اعتبارات.. طموح الحاكم بأمر الله وظروف حكمه للواقع المحيط به، ثم الوسائل التي استخدمها تبدو حيناً متسقة مع زمنه وفي أحيان أخرى تبدو غير مفهومة لأنها تسبقه.

نحو عالم مثالي

يخرج الحاكم بأمر الله راكباً حماره، يتجه إلى المسجد الذي لا زالت بعض الأعمال التكميلية تجري فيه إن موكبه يلفت النظر، لا تحيطه أي مظاهر للأبهة والفضامة التي تعود أهل القاهرة رؤيتها عند خروج الخلفاء الفاطميين، إنه يمشي بدون حرس، وراءه غلام اسمه مفلح يحمل الدواة والسيف والورق في كيس معلق في كتفه وهو يمشي وراءه يكتب ما يتقدم به الناس من شكاوي، كان الحاكم يقف أمام الدكاكين والبيوت يتحدث مع الناس وخلال ذلك يحل بعض المشاكل ينصف بعض من ظلموا وكانت الناس تجرؤ على الاقتراب منه والوقوف بين يديه. يأمر بتعطيل المطابخ الضخمة، والكف عن الإنفاق على الأطعمة الفاخرة، ويبدأ الناس في الانتباه إلى هذه الشخصية غير العادية.

الحاكم بأمر الله يستدعي أحد القضاة، لقد سمع عنه أمراً عجباً إنه يلبس طرطوراً ركب فيه قرنين من قرون البقر يضعه إلى جواره لإخافة الناس ويسأله الحاكم: ما هذا الأمر الذي ابتدعته، ويقول القاضي: يا أمير المؤمنين أشتي أن تحضر مجلسي يوماً وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسي من الناس، وإن كنت معذوراً فيهم.. وإلا فعاقبني بما تختار.

ويذهب الحاكم بأمر الله إلى مجلس القاضي ويشاهد ما يقاسيه في سبيل أخذ الحق لمستحققيه فأقره على ما يفعله، وكاد أن يلبس القرنين لينطح بهما أحد المذنبين.

إن الحاكم بأمر الله يتابع جميع قضاته، كان مهموماً بتحقيق العدالة ورمى بثقله لتحقيق هذا الهدف وكأنه يود لو أنصف هو جميع المظلومين.

ما هو يجلس وفي وقت مهين يعرفه الناس عند أحد أبواب القصر، يجيء المتظلم، يقف

صائحاً، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، يأمر عندئذ باحضاره يصغي إلى شكواه، يأمر بتحقيق عاجل.

ملاح شخصية

القامة مديدة، كما تصفها لنا مصادر التاريخ، العينان واسعتان، براقتان، مشعتان، أقوى القلوب لا تجرؤ على الصمود طويلاً أمامهما، الصوت جهوري عميق، يميل إلى التأمل، كان يحب أن يمشي بمفرده، يصعد إلى جبل المقطم، وبالقرب من حلوان يقوم ببناء شيد خصباً ليرصد منه النجوم والكواكب، ربما كان في نفس الوضع الذي يقوم فيه الآن مرصد حلوان المشهور، إنه لم يعلم النجوم في هذا الموضع يحتجب أياماً كثيرة عن أهل مملكته، لا يحضر مجالس الجدل، له سعى في إظهار كلمته، في عهده خطب له في خراسان.

إنه يحب العلماء ويقربهم، وما كان يؤرقه في ذلك العصر حدوث المجاعات بمجرد انخفاض ماء النيل عن معدله عند الوفاء تختفي الغلال، تقل مساحة الأرض المزروعة فيقاسي الناس شدائد عظيمة، إنه مهموم بوضع حد للمجاعات، حدثوه عن شخص من العراق اسمه: أبو علي الحسين بن الهيثم قالوا له إنه نابغة في فن الهندسة وأنه قال لو كنت في مصر لعملت في نيلها عملاً يحصل النفع في كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص، فأرسل إليه الحاكم أموالاً، ودعاة إلى مصر فلما وصل خرج إليه بنفسه وأركبه وسيره مع جماعة من الصناع وصلوا حتى أسوان، لكن ابن الهيثم يبدو أنه لم يستطع تحقيق ما فكر فيه، لم تساعده إمكانيات عصره على تحقيق مشروعه، هل فكر ابن الهيثم في إقامة سد عال يعترض مجرى النهر وينظم توزيع مياه النهر؟ ربما خاصة وأن الخزانات والسدود لم تكن غريبة على مصر، إنها معروفة منذ أيام الفراعنة لكن يبدو أن ابن الهيثم أراد تحقيق عمل ضخم لم تساعده الإمكانيات المتاحة على إتمامه ولم يضايقه الحاكم بأمر الله، إنما أبقاء مكرماً، إنه يتخذ في نفس الوقت إجراءات عديدة لتخفيف الواقع الاقتصادي على رعاياه، يلغي العديد من الضرائب التي فرضت منذ عهد الولاة العباسيين، وعندما تقع المجاعة يبذل جهداً خارقاً لتثبيت أسعار العملات المتداولة ثم يقيم سعراً لكل شيء بنفسه وفي إحدى المرات التي اختفى فيها القمح، ركب حماره متوجهاً إلى الجامع فاقسم بالله لئن عدت فوجدت في الطريق موضعاً يطأ حماري مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لي أن عنده شيئاً منها ولأسرقن داره.. وانهبن ماله.

في عودته كانت الغلال تملأ الأسواق كان المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله، عادلاً، متسامحاً، عالماً صبوراً، ولكن التاريخ الذي يكتبه السادة لم يحتفظ به بصورته الحقيقية تماماً كما فعل مع علي بن محمد صاحب الزنج وكل من إنحاز إلى جانب العدالة والناس كانت إجراءات الحاكم بأمر الله من أجل تحقيق عالم مثالي تهدد مصالح السادة وهذا ما أدى إلى قتله لكن مسيرته ظلت تؤرقهم على مر العصور فقبلوا وشوهوا وسخروا.

ومن هنا أرى أنه لا حقيقة في التاريخ، الواقعة تفسر من أكثر من زاوية، الحقيقة نسبية،

سيرة الشخص لا تصل للعصور التالية كما هي، يخضعها كل مؤرخ لتصور خاص، تتدخل في تقديره المصلحة والعقيدة وسيرة الحاكم مثال حي على ذلك.
لكن ما هي الإجراءات التي اتخذها الحاكم بأمر الله وسخر منها التاريخ؟ لنلق نظرة على كل منها، والظروف التي أدت إليه.

لماذا الأوامر؟

أمر (١)

«يمنع الحاكم بأمر الله أكل الملوخية والجرجير، والقرع والمتوكلية، وأم الخلول، والترمس العفن، كما يأمر بقتل الخنازير، ومنع عجبن الدقيق بالرجل».
من الواضح أن سبب منع معظم هذه الأطعمة صحي بحت، فكثير منها يتسبب عنها أضرار صحية بالغة خاصة إذا راعينا الحالة الصحية وقتئذ وتنفشي الأوبئة، ويقول بعض المؤرخين إن منع الملوخية والمتوكلية كان بسبب حب معاوية لهما، ومعاوية خصم آل البيت وخصم الفاطميين.

أمر (٢)

(تمنع زراعة الكروم)

أراد الحاكم بأمر الله تحريم شرب الخمر، وكانت منتشرة جداً في ذلك الوقت بسبب حالة الرخاء الاقتصادي التي حدثت بعد الفتح الفاطمي لمصر كما أن الدين الإسلامي ينهي عن الخمر.

أمر (٣)

«يمنع الحاكم بأمر الله صناعة النعال الحريري ومنع النساء من الخروج ليلاً ومنعهن من كشف وجوههن وراء الجنازير والخروج إلى حلقات الرقص خارج المدينة».
استمر منع النساء من سنة ٤٠٤ هـ ١٠١٣ م حتى خلافة الظاهر عام ٤١١ هـ ١٠٢٠ م أي أنهن قضين سبع سنوات محبوسات، وكان الدافع لاتخاذ هذه الإجراءات أخلاقياً ومحاربة الفساد من أجل الحفاظ على التقاليد الدينية، من ناحية أخرى اتخذ الحاكم بأمر الله عدة إجراءات أخرى منها إنشاء دار لأموال اليتامى، لا يدفع من مال اليتيم إلا إذا حضر أربعة من ثقات القضاة وأمر بقتل الكلاب، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع شيء، وطرح بالصحراء وشاطئ النيل وأمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كل مكان وتلك إجراءات صحية وفي ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م أمر بإضاءة القناديل في الليل بسائر الحواري والأزقة بالقاهرة، وهنا نجد بعض المؤرخين يفسرون هذا الإجراء الذي يستهدف الحفاظ على الأمن بأن الحاكم أمر بقلب النهار إلى ليل، والليل إلى نهار، لقد أثرت الرواية التاريخية المفروضة في وجدان الشعب، فنجد بعض الروايات المتوارثة في القاهرة القديمة تقول إن الحاكم بأمر الله قلب الليل إلى نهار، وأنه ركب بعد شروق الشمس (أي غروبها طبقاً للنظام الجديد) ليرى هل يلتزم الناس بأوامره والنوم نهاراً (باعتباره ليلاً) وفعلاً.. وجد الطرقات خالية، والدكاكين مغلقة، لكن إسكافيا

عجوزاً كان لا يزال يعمل، وفي الضوء النهاري أشعل مصباحاً صغيراً. اقترب منه الحاكم متسانلاً عن السبب في مخالفته الأوامر، فرفع الرجل إليه عينين ضعيفتين وقال: أصلى سهران بعض الوقت!!

استخدام الشدة

في أواخر عصر الحاكم، ظهر بمصر عدد من الدعاة بدأوا بنشرون تعاليم غربية مؤادها اعتبار المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله فوق مستوى البشر، وكان أحدهم وهو محمد بن إسماعيل الذي لقب بالدرزي يؤمن بالتجسيم والحلول، فروح آدم تجسدت علياً رضي الله عنه وهذه انتقلت إلى الحاكم بأمر الله ومن قبله أبيه وجده، دعا الناس إلى عبادة الحاكم واستطاع الدرزي نشر دعوته بين عدد من الأتباع بلغ عددهم حوالي ستة عشر ألفاً لقد طرد هؤلاء من مصر واستقروا بالشام حيث يعيشون إلى يومنا هذا في انتظار عودة الحاكم بأمر الله، وهم الدروز..

وبالتأكيد لم يصلنا نص واحد ينسب إلى الحاكم أنه ادعى الألوهية، وتلك مسألة شائكة، تدخلت فيها عوامل عديدة، إذ أن الدعاة أصحاب هذه الفكرة معظمهم من أصل فارسي. حيث الإيمان قوي بتناسخ الأرواح والحلول، إلى جانب فكرة المهدي المنتظر. ونزول المسيح في آخر الزمان، ربما وجد هؤلاء فيما يقوم به الحاكم وفي شخصيته المثالية أرضاً خصبة لأفكارهم، غير أن الحاكم انزعج من هذه الدعوة حتى أنه استخدم الشدة وقتل دعاة الذين غالوا في آرائهم ولم يدفعوا عنه ما قيل عنه، وفي مرحلة معينة أحس بفداحة الخطر الذي تمثلته هذه الدعوة على جهوده من أجل العدل والطمأنينة بين البشر، فاعتزل الدنيا كلها. كان يجلس في مكان مظلم لا يدخل عليه أحد، أو يخرج هائماً على وجهه في الصحراء، أو يصعد إلى جبل المقطم يستغيث بالله، ويناجي ربه وهنا نرى الحاكم زاهداً في الدنيا، لا يحلق شعره، أظافره طويلة، لا يغير رداءه إلا كل مدة، وبرغم ذهوله عن الدنيا، وضيقه بما يجري، لم تفتّر عزيمته في محاربة الذين يحاولون تشويه مسيرته، وظل يحارب حملة هذه الدعوة حتى يوم خروجه الأخير إلى المقطم.

المشهد الأخير

اليوم الثلاثاء ١٣ فبراير سنة ١٠٢١ سنة ٤١١ هـ الليلة يخرج الحاكم بأمر الله من باب القصر الشرقي الكبير ركب حماره متوجهاً إلى خارج القاهرة، المدينة هادئة وثمة غموض في الجسد. ويبدو أن أم الحاكم أحست بما سيقع، تعلقته به قبل خروجه، رجته بحرارة أن يبقى، ألحت عليه، لكنه أصر على الخروج.

أمام باب القصر وقف جماعة ينتظرونه كل ليلة، يصاحبونه في سيره وإذا يقترب من الجبل يعودون، يستمر بمفرده أثناء مشيه ربما اعترضه بعض الرعايا يقدمون له الشكاوي يقف الواحد منهم على يمينه يشرح له متاعبه، يُصفي الحاكم، أن ذاكرته قوية تستوعب ما يسمعه، إذ يعود إلى القصر يعمل على حد هذه المشاكل، ويطلب من الأهالي انتظاره في الليلة التالية بنفس الموضع حتى يخبرهم بما اتخذ من قرارات.

الليلة ظلامها كثيف. النجوم كثيرة في السماء عند بداية الجبل عاد مرافقود وأوغل الحاكم في الدروب المهجورة.

يقال أنه نظر طويلا إلى السماء. ثم صاح (ظهرت يا مشؤوم). ومن هذه اللحظة لم تقع عليه عين بشر حتى الآن. لم يعثر له جثة. وازداد الموقف غموضاً. وعندما نقف الآن في صحن المسجد الفسيح المتهدم. تهيم علينا مسيرة الحاكم بأمر الله كأنه يرقبنا من مكان خفي لقد صلى هنا ومشى هنا ومن أمام هذا المسجد سار إلى الجبل قبل غيبته وإلى المسجد يجيء بعض الناس من الهند بين فترة وأخرى. من بقايا الفاطميين هناك. يحجون إلى مسجد الخليفة الفاطمي. إن الأعمدة تقاوم جاهدة البلى نلمح الأعياء فوق جدرانه. والخراب حول منذنتيه. يجول بالذهن خاطر. هل يعود الحاكم يوما ليعمر هذه الأطلال. وليسأل نفسه كيف تحول هذا المسجد الفخم إلى تلك الأطلال..

ما جرى للمسجد

❖ ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)

بدر الجمالي أمير الجيوش والوزير الفاطمي يجدد أسوار القاهرة، أصبح مسجد الحاكم داخل الأسوار، التصق الجدار الشرقي منه بالسور في المنطقة التي تقع بين باب الفتوح وباب النصر.

❖ عام ٧٠٣هـ (١٣٠٣م)

يقع زلزال خطير بالقاهرة يخرب المندنتين ينتدب السلطان الناصر محمد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فنزل إلى المسجد وكشف بنفسه وأمر بردم ما تهدم منه وأعاد ما سقط من البدنات فأعيدت وفي كل بدنة منها طاق وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا وبالمسجد نفس كتابي جاء فيه: وكان الفراغ في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وسبعمئة.

❖ سنة ٨٦٠هـ (١٣٥٨م)

يجدد المسجد في عهد الملك الناصر حسن. ويبيض منذنتيه أحد الباعة ويعرف بابن كرسون.

❖ سنة ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م)

يقوم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف بتجديد أربع بوائك من مؤخر المسجد ويجعلها بيتا للصلاة. ثم يستخدم المسجد لأغراض مختلفة. اتخذ مقرا لحامية أثناء الحملة الفرنسية، ثم مقرا لبعض الشوام الذين أقاموا فيه مغازل ومصانع لصناعة الزجاج اليدوي ونسج الحرير وفي عام ١٨٨٠ استخدم متحفا للآثار العربية ثم أقيمت فوق جانب منه مدرسة السلحدار الإعدادية. والان لنلقي نظرة من أعلى:

المندنتان

ربما يمثل كل حجر فيها حدثا تجمد من العصر البعيد. تدركننا رهبة إذ ندخل المندنة الشمالية من باب صغير فوق سور القاهرة القديم. السلم حلزوني متسع. فوق درجاته نقوس

فاطمية تآكلت، تدور السلالم حول جسم اسطواني ضخمة من الحجر، تفجع الأذان بأصوات غريبة تلوث ضوء النهار، تنال من رهبة المكان، إنها الوطاويط، لا تخرج في النهار وفي السماء تنتقل أسرابها إلى أشجار النبق القديمة في فناء الجامع، وتطير إلى الشرفة الرئيسة ببيت السحيمي الأثري القريب.

أعلى المئذنتين

تشعر بالعلو الشاهق تبدو المئذنة البحرية، القاعدة المربعة، يعلوها بناء مربع آخر يميل خفيفاً، يذكرنا هذا بوصف الرحالة عبد اللطيف البغدادي لمئذنة الإسكندرية عام (١٢٠٠م) لاشك أن المئذنة كانت تشكل منيع الوحي الذي استوحاه المهندسون المصريون عند بناء المئذنتين، أنهما أقدم مئذنتين قائمتين على حالهما القديمة في العمارة الإسلامية في مصر.

نلاحظ فوقهما بنائين غربيين عن الطراز الأصلي للمئذنتين، إنها الإضافات التي قام بها الأمير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٣هـ بعد أنه هدمهما الزلزال، لكن ما بناه يبدو نشاز لم يراع الطراز الأصلي للبناء، أكمله ببناء من زمنه هو، الآن تعاني المئذنتان إهمالاً وهواناً.

الوطاويط تلوث أحشائهما، والكتابة الكوفية الجميلة التي تحيط بهما مهددة بالتآكل والضياغ، من أعلى تبدو أطلال المسجد، تبعث على الرثاء، وكأن الحاكم يرقبنا ويرقب نظرات الأسى في عيوننا إلى ما تبقى منه، لقد جاهد طويلاً ليمحو الظلم، وسعى في الأرض ليقم العدالة، ثم غاب في غموض غريب، وحملت الرواية التاريخية دماؤه لأخته ست الملك التي قيل أنها قتلتها.

غير أنه لم يتبق منه كحقيقة مادية ملموسة، ومن جهوده كلها.. إلا هذه الأطلال.

